مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(07)، العدد (02)، (ديسمبر-2022)، ص 457-476
ISSN:2602-5566 EISSN:2716-8999

الذاتية الترنسندنتالية ومكانتها في الفينومينولوجيا كفلسفة للماهية عند إدموند هوسرل

Transcendental subjectivity and its place in phenomenology as a philosophy of essence according to Edmund Husserl

رفيق بوجمعة[1] *، حسان بركان [2]

1مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة 1(الجزائر) ، boujemarafik86@gmail.com

[2] مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة1 (الجزائر) ، berkhassane@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022/07/08 تاريخ القبول:2022/12/10

ملخص:

لقد كان للتحول الهوسرلي إلى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية دور في إبراز مكانة العودة إلى الذات الترنسندنتالية في التأسيس للعلم الكلي والمعرفة الماهوية . لأجل ذلك يحاول هوسرل الكشف عن المعنى الذي أراده لها خاصة وأنّ إشكالية الوعي ومسألة الذات تشكلت كإرث فلسفي ، لذا نحاول في هذا المقال البحث في مشكلة المعنى هذه ، ومدى القدرة على تخطي حدود تاريخ المسألة الترنسندنتالية ، ونسعى في ذلك إلى الكشف عن حقيقة هذا المعنى بالرجوع إلى الموازنة بينه وبين الفلسفات السابقة ومن خلال الموقف الفينومينولوجي كمنهج، وكذا مكانته في فينومينولوجيا هوسرل كفلسفة للماهية والفينومينولوجيا عامة من خلال الأفق المفتوح مع مختلف الإنتقادات ، وقد تمّ الإعتماد في ذلك على المنهج التحليلي مع المقارن عندما تستدعي الحاجة إلى ذلك، و تمّ التوصّل إلى اتصاف معنى هذه الذاتية بالتجديد عن المعاني المحدّدة مع مختلف الإنعطافات الترنسندنتالية في الفلسفة الغربية رغم بروزها كمرجعيات ، ورغم ما أبدته بعض القراءات من اعتراضات وإقحام في الصعوبات.

الكلمات المفتاحية: فينومينولوجيا ؛ ذاتية ترنسندنتالية ؛ وعي؛ ماهية؛ إيبوخية .

Abstract:

The Husserlian shift to transcendental phenomenology highlights the status of the return to the transcendental self in the foundation of omniscience and essential knowledge, so we try to research this problem of meaning, and the extent of the ability to go beyond the limits of the history of the transcendental issue, and we seek in that to reveal the truth of this meaning by reference To balance it with previous philosophies and through the phenomenological position as a method, as well as its place in Husserl's phenomenology like a philosophy of essence and phenomenology in general through the open horizon with various criticisms, and reliance has been made on the analytical approach with the comparison when the need arises, and a description has been reached. The meaning of this subjectivity is to renew the specific meanings with the various transcendental turns in Western philosophy, despite their emergence as references, and the objections expressed by some readings and the intrusion into difficulties.

Keywords: phenomenology; transcendental subjectivity; consciousness; essence; epochism

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

تعبّر الفينومينولوجيا الهوسرلية عن رغبة عميقة في التأسيس للعلم الكلي والماهوي بطريقة مغايرة لتلك التي شهدها الفكر الغربي منذ لحظة انبثاق المنهج فلسفيا وبلورته، ولذلك فإنّ قراءة للمشاريع الفكرية تكشف عن انجذاب نحو هذا المسعى، فقد ظل الترصد المنهجي يقارع هذا التأسيس من خلال خلخلة وتقويض كل مايقف عقبة في طريق ذلك، ولعل السمة البارزة في أغلب الأحيان ارتباط مختلف المناهج بالنسق العام وما يترتب عنه من إعطاء قيمة لعلاقة الذات بالموضوع، التي في الكثير من الحالات ما يكون مآلها تعالي الذات عن الموضوع أو تفقد الذات تعاليها فيصير الحق تعبير عن انعكاس تأملي للموضوع لاغير.

من هنا يبدو أنّ مشكلة علاقة الذات بالموضوع احتلت مكانة هامة في الفلسفة الغربية هي الأخرى، ورغم ما كان يبدو من توهج جدلي بين العقلانيين والتجريبين مع العصر الحديث إلّا أنّه لم يستطع فض هذه المشكلة، فقد ظلّ جل الاهتمام منصبا حول المنهج الملائم مع اتصال بالنسق العام وظل كل طرف يدعي امتلاك الحقيقة والعلم الكلي استنادا إلى منهجيته كما بقي التقليد الفلسفي حاضرا كإرث لا يمكن الاستغناء عنه حول نقطة الانطلاق، فإمّا من العالم المادي الخارجي الذي يتمثل في الموقف الطبيعي وإمّا من العالم العقلي الداخلي الذي يعبّر عن الموقف المثالي.

ضمن هذه الظروف أطلق إدموند هوسرل الفينومينولوجيا محاولا بذلك رفض المنطلقين في فعل التأسيس وسعيا جادا في حل مشكلة الذات والموضوع، من خلال الارتداد إلى مجال بدا له محايد يرفض المنطلقين، بحثا عن ماهية وعيان خالص كما يتوضح ذلك في خطوات المنهج الفينومينولوجي، من خلال ما يكفله التعليق ومساره نحو إبعاد الواقع المادي عن بنية الوعي والبناء القصدي لتكوين الماهية في الوعي والإيضاح الذي يتوج المسار بنظرية في الحدس الموضوعي، هنا قد يبدو لنا أنّ الفينومينولوجيا هي عودة إلى الذات وعودة إلى الموضوع.

غير أنّ ما كشفته المرحلة الأخيرة في تكوين الإتجاه الفينومينولوجي الهوسرلي في نظر بعض الباحثين من تحول إلى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية أحدث منعطفا هاما في فعل التأسيس . تأسيس المعنى والماهية. داخل الذات بوصفها ذاتا ترنسندنتالية لا سيكولوجية فكان المنتهى الهوسرلي إلى تأسيس علم نفس فينومينولوجي يرتقي إلى ماهية ترنسندنتالية من خلال التحول إلى هذه الذاتية ومكانتها في الفينومينولوجيا بوصفها علم الماهية والعلم الكلي، وهكذا يكون للمسألة الترنسندنتالية في الفينومينولوجيا حضور وهوما استوقفنا للنظر والبحث في حقيقة هذه الذاتية، ومن هذا المنطلق تبرز الإشكالية التالية : هل المعنى الذي يقدمه إدموند هوسرل للذاتية الترنسندنتالية ومكانتها في الفينومينولوجيا بإمكانه أن يتجاوز معناها المحدّد مسبقا في تاريخ المسألة الترنسندنتالية أم أنّه مجرد استكمال لمسار ترنسندنتالي مرتبط بإرث فلسفي سابق لا غير

2-المشروع الفينومينولوجي الهوسرلي من أزمة العلوم إلى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية

تكشف الفينومينولوجيا الهوسرلية عن فلسفة أزمة ومشروع نقدي إصلاحي لما اعتقد أنّه قد حاد الحقيقة الكلية بفعل التعويل على الحل التجريبي الوضعي الطبيعي الخارجي والانحراف عن مبتغى تأسيس الفلسفة كعلم صارم ودقيق بحثا عن ارتقاء من الموضوعية إلى الذاتية المتعالية واسترجاعا للدلالة الإنسانية المفقودة، كما يبرز ذلك واضحا في الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ذلك أنّ هوسرل Husserl (1859. 1938)يسعى إلى إعادة النظر في واقع علوم العصر وفلسفته التي استوى أمرها إلى الأزمة .هنا يتحدد هذا المشروع في صورته النقدية الإبستمولوجية فلم يحد بذلك عن سمة الفلسفة الديكارتية والكانطية التي ارتسمت في أفق نقد روح العصر بيد أنّه لم يبق في حدود نقد العقل وإصلاحه حينما يتوجه للإنسانية عموما.

إنّ الشعور الهوسرلي بالأزمة يعلن منذ البدايات الأولى للفينومينولوجيا، ذلك أنّ كتاب فلسفة الحساب (1891) يكشف عن المسعى الفينومينولوجي الطامح للبحث عن العلم الكلي والحدس الأصلي، إذ ينطلق هوسرل في تفسير المفاهيم الرياضية من جعلها في البدابة ترتد إلى الأسس النفسية، ثم يتراجع عن ذلك ليجعل اليقين في المنطق، وبهذا يكشف عن نزوعه الإصلاحي للرياضيات ليوسع المجال إلى علم المنطق وعلم النفس والفلسفة (رافع محمد،1991، صفحة 114).

ويكشف كتاب " الفلسفة علما صارما " (1911) عن رغبة عميقة في إصلاح الفلسفة وتحويلها إلى علم دقيق وكذا ضرورة التركيز المنهجي على تحديد شروطه تحديدا واضحا، أما كتاب التأملات (1929) فيبرز فيه التحليل الفينومينولوجي من خلال وصف علوم العصر بالابتعاد عن اليقين الكلي ليستفيد من الأساس الإبستمولوجي الديكارتي النقدي مع أنه يكشف عن غموض يكتنفها، ومن ثمّ فإنّ تجديدها لأسسها لا يجب أن يبقى مرتبطا بتأملات ديكارت، ويمكن الوقوف في كتاب أفكار(1913) على تشخيص للأزمة من خلال الوقوف على الهوة بين علوم الوقائع وعلوم الماهية التي لم يلتفت إليها تم محاولة تخطي ذلك من خلال التمييز بينهما، ويبلغ النضج ذروته في تحليل الأزمة من خلال " كتاب أزمة العلوم الأوربية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية " كآخر كتابة وصرخة تكشف عن عمقها والتفكير الجاد في حل مشكلاتها من خلال انتقاد محاولات السابقين ليعلن في جزئه الثالث عن توجهه للفينومينولوجيا الترنسندنتالية كمنهج جديد يمكن التعويل عليه في تجاوز الأزمة.

هنا تغدو الأزمة في الأساس أزمة معنى وعقلانية وانفصال لعالم العلم عن عالم الحياة بفعل سقوط العلوم أسيرة للمبتغى الموضوعي والتحديد الوضعي الذي نجم عنه إغفال المشكلات الحقة للإنسان (بونفقة، 2012،صفحة 139) وانطلاقا من هذا تبرز الحاجة الملحة للعودة إلى الذات والتحرر من كل استلاب لها لتعاد للإنسانية قيمتها التي فقدت في النزعة الوضعية

والطبيعية التي آل إليها العلم، ومن هنا يتوجه هوسرل إلى البحث عن منهج جديد يمكن من تجاوز الموضوعية ومآلاتها الساذجة إلى ذاتية ترنسندنتالية .

وتبعا لهذا فإنّ الوصول لإدراك المعنى الحقيقي لوجود العالم يستند على هذا الأساس. أي بالرجوع إلى الأنا الخالص الذي يجعل من الحقيقة والماهية الكلية داخل الوعي (الشعور) الإنساني الذي يكتمل تحققه في الذاتية الترنسندنتالية، إنّ الذات وفق المنظور الهوسرلي لا يمكن أن توصف كذلك إلا بكونها حاملة لمعنى الأشياء عن طريق الوعي، ذلك أنّ الوعي هو دائما وعي بشيء ما، وهذا ما قصده هوسرل في مؤلفه " البحوث المنطقية " من خلال التأكيد على قصدية الذات وتبعا لهذا فإنّ حقيقة الوعي الذي يرتبط بالنزعة النفسانية ترتبط بمعطى طبيعي وهوما يستبعد من الفينومينولوجيا التي تبحث في الوعي المحض باعتباره ظاهرة ترنسندنتالية، وهذا ما يحيلنا إلى إقامة تمييز بين الذاتية الطبيعية السيكولوجية والذاتية الخالصة الترنسندنتالية ، ذلك أنّ" بنية العنصر النفسي تتميز عن بنية الأنا المحض كما تقومت من خلال الجزأ الأول من كتاب أفكار1، أي كما يظهرها الرد الترنسندنتالي، رغم أنّها تحيل هي أيضا إلى مفهوم الأنا ، فأنا النفس هو ذات لأنا الإنسان، يتقوم بصفته حقيقة واقعية من بين حقائق واقعية أخرى، أمّا الأنا المحض فهو ماهية تلك الذات، وهوقطب يتقوم ذاتيا أو يدرك بإدراك ذاتي وإذا تكلمنا بعبارات فينومينولوجية ، يعد الأول ذاتا إمبيرية والثاني ذاتا ترنسندنتالية " (الزارعي، 2010، صفحة180).

بهذا المعنى فإنّ الحل الفينومينولوجي المقترح من هوسرل يستبعد كل نزعة تجريبية متافزيقية في علم النفس ولذلك فإنّ الفينومينومينولوجيا الترنسندنتالية بوصفها آخرمرحلة في تكوين الفينومينولوجيا تكشف عن مدى التمايز بين علوم الوقائع وعلوم الماهية.

بيد أنّ هذا التأكيد لا يعني رفض الأولى، وإنما تعبير عن مسعى هوسرلي للإرتقاء بها نحو التجربة المتعالية من خلال هذه التوسعة لمجال التجربة إلى الماهية هذا ما يوضحه جون بول سارترJ- P - Sartre. (1905. 1980) في كتابه نظرية الإنفعال فيقول " وقد نشأت قبل نحو ثلاثين عاما مدرسة جديدة هي المدرسة الفينومينولوجية كرد فعل على النواقص في علم النفس، لقد أخذ مؤسسها هوسرل بهذه الحقيقة، حقيقة اختلاف القياس بين الجواهر والأفعال وبأنّ من يبدأ بحثه عن الأفعال لن يتوصل أبدا إلى الجواهر (...) وبدون أن تبطل فكرة التجربة سيما وأنّ مبدأ الفينومينولوجيا هوبلوغ الأشياء ذاتها عن طريق الحدس الخيالي"(سارتر ، د س ،الصفحات 111، 112).

إنّ الإيبوخية(تعليق الحكم) هي الطريق الوحيد الذي يرد فيه الأنا الطبيعي والحياة النفسية إلى أنا ترنسندنتالي وهذا ما يحيل العالم الموضوعي بوصفه موجودا لذاتي إلى الذات بل وكل المعنى والقيمة الوجودية تستسقى من هذا الأنا الذي يكشف عنه التعليق الفينومينولوجي الترنسندنتالي (هوسرل ، 1970، صفحة 132) وهكذا ينتهي هوسرل إلى توسيع نطاق التجربة سعيا

إلى الارتقاء بها إلى ماهية متعالية حولت اهتمامه إلى الذاتية الترنسندنتالية، هنا يطرح التساؤل: إذا كان هوسرل يجعل من الإيبوخية مطلبا ضروريا فهل معنى ذلك أنه سيغض النظر عن التراث الفلسفي المعبرعن المسألة الترنسندنتالية في نرنسندنتاليته؟

3-معنى العودة الهوسرلية لتاريخ المسألة الترنسندنتالية

يبدو للوهلة الأولى أنّ هوسرل يقحمنا في مفارقة وإحراج حينما يجعل من الإيبوخية (تعليق الحكم) مرتكزا ضروريا، ومن الرجوع إلى الإرث الفلسفي المرتبط بالمسألة الترنسندنتالية المتشكل كتاريخ ، فمن خلال التعليق يتم تقويس وتعكيف كل مايقف عقبة في بلوغ العيان الأصلي تمهيدا لبلوغ الماهيات الخالصة وللعودة إلى الأصول القائمة في الوعي بما في ذلك التراكمات التاريخية المنتجة بمختلف تجلياتها الثقافية والإيديولوجية تحقيقا لمطلب العودة إلى الأشياء ذاتها من خلال العودة عن الأشياء، ومن جهة أخرى تبدو العودة إلى تاريخ المسألة الترنسندنتالية ضرورية لتحريك واستكمال واستبانة البحث الفينومينولوجي.

بيد أنّه لا يجد في ذلك إقحاما في مآزق التضاد حينما تكون العودة إلى التاريخ والذات بداهة تكشف عن حدود التصور الذي يجد فيهما فلسفتين متضادتين، ذلك أنّ الفينومينولوجيا وفق المنظور الهوسرلي تكوين تاريخي سيما وأنّه يعتبرها ملهمة للتفلسف الحديث (الزارعي،2002، صفحة 50). من هنا يمكن أن يتحدد الموقف الهوسرلي في رفضه إفناء التاريخ، فحينما تكفل عملية الرد مهمة الوضع على محك المسؤولية التاريخية من خلال غض النظر عن المتراكم التاريخي فإنّ هذا المسعى أو العمل هو تاريخي في حد ذاته بالمعنى المرجأ والمؤجل، ذلك أنّ هوسرل عندما يؤكد على الرؤية التي ترفض المذهب التاريخي بوصفه تعبير عن زيف أو غلط معرفي يتبع ذلك باعتراف بقيمته بالمعنى الواسع ولعل هذا ما كان يرمي إليه في كتاب " الفلسفة علما صارما" حينما عبر عن هذا قائلا " وإذا كنت بناء على ذلك أنظر إلى المذهب التاريخي على أنه غلطة معرفية (إبستمولوجية) يجب بسبب نتائجه المحالة أن يرفض بنفس الطريقة التي رفض بها المذهب الطبيعي من قبل، فإنّني لازلت أود أن أؤكد بشكل صريح أنّني معترف تماما بالقيمة الهائلة للتاريخ بأوسع معاني الكلمة ، بالنسبة إلى الفيلسوف "(هوسرل،2002، صفحة24).

ولكن بأي معنى يحدثنا هوسرل عن الإرث الفلسفي الترنسندنتالي إذا كان يعترف بقيمة التاريخ بالمعنى الواسع على حد تعبيره؟

يمكن أن يفهم من هذه العودة لتاريخ الفلسفة الترنسندنتالية إضافة لكونها عودة تتوضح منها المقاصد الفينومينولوجية أنّها كذلك رجوع يكشف من خلاله التصور الغائي، إنّها عودة إصلاحية غائية، تعبّر عن مطلب فلسفي يرتبط أساسا بمهمة تاريخية تتمثل في " الارتقاء بالفلسفة إلى شرف الفلسفة الأولى" (Husserl, 1990,p03.).

تلك المهمة الملقاة على عاتق الفينومينولوجيا بوصفها العلم الكلي والفلسفة الأولى فهي عودة لا لاستكمال مسار تساؤلي نسقي سابق وجد مع فلسفات سابقة، بل تعبير عن فلسفة يكون منطلقها وبدؤها من ذاتها . من الفينومينولوجيا ذاتها . من خلال تبيين ما لم يكشف من المسألة الترنسندنتالية، وبهذا المعنى يستحضر هوسرل أفلاطون وديكارت وكانط وغيرهم في ترنسندنتاليته.

4- حوار الذاتية الترنسندنتالية والإرث الفلسفي :

يعترف هوسرل في كتابه الفلسفة الأولى بالأدوار الفلسفية لسقراط **Socrat**(470ق.م- 399 ق.م) وأفلاطون Platon (427 ق.م – 374 ق.م) في البعث العقلي للفلسفة كما يبرز واضحا في جزئه الثاني المعنون " من فكرة الفلسفة حسب أفلاطون إلى بداية تحققها في العصر الحديث إذ يعتبر " أنّ تاريخ الفلسفة من وجهة نظر الفلسفة قد ولدت من الردود السقراطية الأفلاطونية ضد السفسطائيين والتي بصفتها العلة الغائية والعلة الكامنة الموجهة لكل تطور لاحق للعلم ") Husserl,1990,p03).

هنا سنحاول الوقوف عندما يرتبط بالمسألة المثالية الترنسندنتالية والموقف الهوسرلي منها فسقراط من خلال التمييز بين ما يدرج في الظن وما يرتبط بالحقيقة يكون بذلك جعل الماهية الخالصة في ذاتها ومعطاة في بداهة قطعية، والطريق إليها يكون في وعي الذات والمنهج التوضيحي المنجز في البداهة القطعية (Husserl, 1990 ,p14)**وهذا** ما يتماشى مع المبدأ الهوسرلي في العودة إلى الأشياء ذاتها.

وأفلاطون في مسعاه الطامح للبحث عن الحقيقة الكلية والماهيات العقلية الثابتة يجردها من العلائق المادية المحسوسة ويجعلها مفارقة لها وهوما قد يبدو متماشيا مع الإيبوخي الهوسرلي الطامح للارتقاء إلى التجربة المتعالية من خلال توسيع المجال إلى الماهية.

بيد أنّ هوسرل رغم ما يبديه من اعتراف بالأدوار الأفلاطونية السقراطية في ترنسندنتاليته غير أنّه لا يقف عند حدود ذلك، لقد وجد في أفكار سقراط افتقار للمنهج ويجعل أفلاطون المكتشف الأول للمنهج " الذي يتيح فعليا المذهب الغائي الأعلى للفلسفة المرتبط بماهية المعرفة الحقة" (Husserl,1990.p17) .

ورغم هذا يرفض الموقف الهوسرلي مآل المثالية الأفلاطونية إلى منح تعالي للفكرة عن الشيء، للماهيات عن الموجودات، ذلك أنّ هوية الماهية تتحدد من خلال الماهية ذاتها، من حيث هي معطاة في الحدس أو الوعي فهي مكتفية بذاتها، وبالتالي فإنّ الوجود فينومينولوجيا لا يتدخل إلا باعتباره معطى من معطيات الوعي لا بكونه حقيقة في ذاتها(جوليفييه ،1988، صفحة280) .

إنّ أفلاطون يجعل من العلاقة بين الحقيقة المطلقة بوصفها موضوع للفكر والشيء المحسوس علاقة مشاركة وهوما لايتماشى مع نرنسندنتالية هوسرل المحكومة بمبدأ التضايف فالأفكار لها دور منهجي بحكم التضايف مع موضوعاتها، هذا المبدأ يتحدد من خلال الذاتية

الترنسندنتالية كأساس والتقوم الترنسندنتالي الذي عجز الموقف الأفلاطوني عن إدراكه (الزارعي،2010، صفحة61).

وقد يلتقي المسلكين الأفلاطوني والهوسرلي في إرادة الذات التحررية من كل وهم وسذاجة تتعارض مع الإرادة العقلية كما يتجلى بوضوح في الديالكتيك الأفلاطوني، وبحكم ما تكشف عنه الإيبوخية الهوسرلية من توقف وحدس في إدراك الماهيات التي تستوجب ذلك ولما تكشفه المحايثة القصدية المثالية من رفض كل تعالي للظاهرة التجريبية من خلال البحث عن المعطى المثالي (الماهية)

هذا ما يوضحه هوسرل في " فكرة الفينومينولوجيا" حيث يؤكد أنه " من البين أنّي لا أستطيع أن أرفع ماهية المعرفة إلى رتبة الوضوح إلا إذا نظرت إليها بنفسي، وكانت في هذا النظر معطاة بنفسها كما هي يجب على أن أدرسها على نحو محايث وحدسي تعرف كما هي في الظاهرة المحضة، في الوعي المحض " (هوسرل، 2007، صفحة83).

بيد أنّ المسارين الديالكتيكي والإيبوخي المؤكدين على الذاتية يمكن أن يفترقا في عدم قدرة الأول على تجاوز وقائعية الأفكار والتأكيد على وجودها الواقعي وهوما يبدو في توجه لافينومينولوجي سيما وأنّ هوسرل يرفض هذا التماثل تماشيا مع مبدأ الحدس المقترن بالإيبوخي وتأسيس الأفكار من خلال العودة إلى الأشياء ذاتها والذي يجعل معطى هذه الأفكار حالات معيشة للوعي (Husserl, 1950, pp 305.306).

هكذا تبدو مثالية أفلاطون غير قادرة على تجاوز الأفق الذي يخلصها من الأنا الطبيعي الذي يصاحب عملية الوعي وهو ما يسعى إليه هوسرل في ترنسندنتاليته التي تؤكد على ذاتية محايدة تتجاوز حدود السيكولوجي والعامي والطبيعي، ومآلاتها اللاّفينومينولوجية ويمكن أن تكون أساسا لكل معرفة ماهوية وحقيقة كلية.

ويقف هوسرل عند الإرث الفلسفي الحديث لديكارت Descartes (1650.1596) وما كان يبدو في فلسفته من انعطاف ترنسندنتالي، ليقيس صلاحيته مع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ذلك أنّ ديكارت يحدث ثورة وانعطافا هاما في ماهية المعرفة والمسار المفضي إليها سيما وأنّه يهتدي بفكرة الإصلاح الباحث عن الفلسفة كوحدة كلية للعلوم من خلال العودة إلى الذات في التأسيس ، هنا يتأمل هوسرل التأملات الديكارتية بحثا عن ما يمكن أن يفيد في الفينومينولوجيا الترنسندنتالية وكشفا عن ما يبدو متعارضا معها أو لم يستكمل بعد " فالاندفاعات التي تلقتها الظاهريات ،إنما تدين بفضلها لرينيه ديكارت أعظم مفكري فرنسا وقد تحولت الظاهريات الناشئة بفضل دراسة تأملات ديكارت إلى نموذج جديد للفلسفة المتعالية" (هوسرل ،1970،صفحة100).

ولعلّ المقصود من وراء هذا قيمة المنعرج الترنسندنتالي الديكارتي في التحول إلى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، إذ يمكن اكتشاف الوجه الديكارتي لهوسرل من خلال الوقوف

عند الطريق والمسلك الذي خطه ديكارت في تقصي ماهية المعرفة والباحث عن الأساس الذي يجب التعويل عليه فالشك الديكارتي يكشف عن حدود الموقف الطبيعي الخارجي وهذا ما يتماشى مع الموقف الهوسرلي الذي يزيح هذا الأخير من طرق ومسالك العبور للماهية والتي تكمن في الوعي الخالص بطريق الإيبوخية الذي يعلق كل معطى مادي طبيعي.

بيد أنّ ما يطرح خلف الشك الديكارتي من ذاتية . الأنا أفكر. بوصفه مبدأ واضح وماهية يجد فيه هوسرل عجزا عن تخطي حاجز بلوغ الفلسفة الفينومينولوجية الترنسندنتالية التي تحوز فيها الذات الوجود المتعالي فتصير بذلك مرتكزا وأساسا لكل معرفة ماهوية متعالية وهنا يتجلى المفترق الترنسندنتالي الديكارتي الهوسرلي في المآل الذي بقيت الذاتية الديكارتية أسيرة له كما يتوضح ذلك مع التأمل الثاني من تأملاته ، ذلك أنّ ديكارت جعل ماهية هذه الذاتية كشيء مفكر مع أنّه شك في الماهية الشيئية للشيء وبهذا تم تغييب الرؤية الترنسندنتالية التي تتقوم فيها عالمية الأشياء(خوري ، 1983، الصفحات 211، 212).

وبهذا يعمل هوسرل على تجاوز الذاتية الديكارتية التي تحددت كوعي إلى ذاتية ترنسندنتالية حقيقية تطرح خلف الإيبوخي الذي يكشف عن عيان أصلي . عن الماهية الخالصة. ذلك أنّ هوسرل لم يبق أسير للأنا الطبيعي السيكولوجي والحياة النفسية بوصفها مجال التجربة النفسية الباطنة حينما يكفل الرد إمكانية رد هذا الأنا إلى أنا ترنسندنتالي وفينومينولوجي.

وهكذا يعلن هوسرل عن ارتباط الماهية الخالصة بالوعي الخالص . بالذات الخالصة . بوصفها مصدر كل ما هو قطعي وبديهي وكذاتية ترنسندنتالية تحمل العالم في ذاته كوحدة من المعاني ومن ثم تغدو "الفينومينولوجيا سعي للوصول إلى الوعي الخالص. الفينومينولوجيا الخالصة . التي تبحث في الماهية لا غير " (Husserl, 1950,p07) . وهذا يعني أنّ السعي الفينومينولوجي الهوسرلي يتوجه لأفق ترنسندنتالي تحرري، وهوما يبدو مغيبا في الذاتية الديكارتية المطروحة خلف الشك بحكم أنّ اللجوء الديكارتي إليه كان للإرتماء في ما يمكن أن يقاوم لحظة الشك دون تفكير في أي مسعى ترنسندنتالي تحرري للذات.

لقد أسس هوسرل الفينومينولوجيا الترنسندنتالية على مفهوم التقوم الذي يفضي إلى جعل كل موجود متقوما في وعي ومن ثم يجب رفض كل وجود لا يتقوم فيه وهذا ما يحيلنا إلى حوار الذاتية الترنسندنتالية لهوسرل ومونادولوجيا ليبنتز Leibnitz (1646، 1716) وهو ما يبدو جليا في التأملين الرابع والخامس من التأملات الديكارتية لهوسرل حيث يعمل هوسرل على توضيح المفترقات والخلاف مع الميتافزيقا الليبنتزية رغم ما يبديه من حاجة للإقتباس منها تجنبا لما يمكن يؤول إليه من مآزق الذاتية التي لطالما أبدى اعتراضه عليها فكيف ذلك؟

نقطة البدء الهوسرلي هي التمييز في التأمل الرابع من تأملاته الديكارتية بين الأنا القطب الهوى وحامل الملكات من الأنا منظورا إليه في امتلائه العيني أو ما يعرف بالموناد عند ليبنتز ذلك

أنّ الأول " يضيف كل ما لا يمكنه أن يوجد عينا، أي يحمل في ثناياه كل أنحاء الوجود، فالأنا يكون أنا في تعدد أشكال حياته القصدية وموضوعاته المقصودة، والتي يتقوم وقتيا فيها باعتباره موجودا لأجلها «(هوسرل ،1970، الصفحات 184، 185). ومن هنا يمكن القول أنّ الموضوع يتقوم واحدا بالذات وبخواصه المتعددة، وتبعا لهذا يبدو الخلاف الهوسرلي الليبنتزي واضحا في رفض التوجهات المتافزيقية المرتبطة بالتقسيمات التي يضعها ليبنتزللموناد وكذا ما يرتبط بالموناد الأعظم كمصدر للخلق والنظام الذي تعمل الموناد ات به.

بيد أنّ هوسرل في التأمل الخامس الذي حمل عنوان " تحديد المجال المتعالي كذاتية متصلة بين الوحدات الذاتية " يبدي حاجته إلى مثالية ليبنتز في تحليل ماهية الأنا ومضمونه تلك المثالية التي توصف بأنها علم الوحدات الذاتية رغم ما يبدو منها من انحرافات متافزيقية فهي تتماشى مع ما يبدومن فينومينولوجيا خالصة وتجربة ترنسندنتالية كشف عنها الرد الترنسندنتالي، لقد وجد هوسرل الخلاص في مونادولوجيا ليبنتز حلا لمآزق واعتراضات الإرتماء في مذهب الأنا وحدية، وذلك بحكم أن المعطى الموضوعي بوصفه ماهية سيكون مآله عالم الذاتية الترنسندنتالية وبالتالي السقوط في مذهب الأنانة المتعالي، هنا يجعل هوسرل الانتقال للموضوعية مرتبطا بالمونادولوجيا الليبنتزية (هوسرل، 1970، الصفحات 285، 286).

إنّ الأنا وفق للمنظور الهوسرلي يستطيع أن يقوم في وحدته الذاتية وحدة ذاتية أخرى وبالتالي " يمكن تحقيق الهوية بين الطبيعة المقومة بذاتي والطبيعة المتقومة بالآخر" (هوسرل، 1970،257). وبهذا المعنى وحده للتقوم . المعنى الذي يجعل اتصال بين الوحدات الذاتية . يمكن أن نفهم الفعل القصدي الواعي وتبعا لهذا سيصير بذلك من المرتكزات الضرورية .

إنّ التحديد الهوسرلي لمعنى الترنسندنتالي يمكن أن يتحدد بصورة واضحة من خلال الوقوف الفينومينولوجي الهوسرلي عند الفلسفة الترنسندنتالية لإيمانويل كانط E-Kant ((1724 1804). سيما وأنّ الحضور الكانطي يتجلى واضحا من خلال التأكيد على نقد العقل أو الوعي للكشف عن الماهية، وكذا من خلال الاعتراف الهوسرلي بهذا الوقوف والحوار والعودة في التأمل الخامس من تأملاته حينما صرح قائلا " ويمكن أن نشير إلى المجموعة الغنية من البحوث التي تتصل بالعالم الأولي (والتي تكون تعليما كاملا) بكلمة الحساسية المتعالية بالمعنى الواسع جدا لهذه الكلمة . ونحن نستعير هنا هذه التسمية الكانطية " (هوسرل ، 1970، صفحة 283). وهوما يبدو كذلك واضحا في الجزء الأول من كتابه الفلسفة الأولى وكذا في محاضرة "كانط والفلسفة الترنسندنتالية"، بيد أنّ ما يبديه هوسرل من عودة إلى كانط بقدر ما يبدو فيها اعتراف بالانعطاف الترنسندنتالي يتجلى فيه النقد لمآلات الترنسندنتالية الكانطية فكيف ذلك؟

بإمعان النظر في حقيقة النقد الكانطي يبدو أنه تعبير عن منعرج من المنهج الذي يتكأ في البرهنة على العلوم الطبيعية إلى مساءلة المعرفة عن شروط إمكانها قبليا ترنسندنتاليا وتبعا لهذا يحدث كانط ثورة وانعطافا في فهم المعرفة وفي علاقة التفكير بالأشياء(HUSSERL ,1990,P366) .

وهو ما يحيلنا إلى التقاطع الترنسندنتالي الهوسرلي الكانطي في رفض التحفيز الطبيعي للتفكيرعند كانط الذي يتماشى مع الطموح الهوسرلي الساعي للبحث عن الماهية الخالصة فكيف ذلك؟ إنّ كانط يجعل كل مايكون الفلسفة الترنسندنتالية ينتمي إلى نقد العقل المحض وتبعا لهذا فإنّ هذا النقد هو الذي يمثل الفكرة المتكاملة للفلسفة الترنسندنتالية، وبالتالي تكون حكمة عالمية له فقط وكل ما هو عملي إذا ما حتوى دوافع يكون على علاقة بمشاعرتنتمي بدورها إلى المصادر التجريبية للمعرفة (كانط، 2013، الصفحات 43، 44).

ومن هنا يبدو واضحا أنّ البحث الكانطي وفلسفته الترنسندنتالية التي تسير في مسار كيف يمكن أن تكون القضايا التأليفية ممكنة قبليا؟ تعمل على التخلص من تحفيزات التفكير الطبيعي وهو ما يبدو في تقاطع مع ترنسندنتالية هوسرل سيما وأن كلا المسلكين يبدو السعي الفلسفي فيهما واضحا في تجاوز الإرث الفلسفي الوسيطي السكولائي الذي ارتبط بمقولة الجوهر.

إنّ هوسرل ورغم ما يبديه من قيمة للمسائل المرتبطة بالفلسفة الترنسندنتالية الكانطية في الجزء الأول من كتابه الفلسفة الأولى والتحديد الكانطي بالقبلي غير أنّه يجد في ذلك عدم ارتقاء إلى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية الخالصة كما تصورها ويمكن أن يبرر هذا بتحديد معنى الترنسندنتالي في التوجهين وهو ما يكشف عن خلاف يفضي إلى مفترق فكيف ذلك؟

يتحدد الترنسندنتالي عند كانط بالقبلي كما أشرنا إلى ذلك أي أنّه يرتبط بكل معرفة ترتبط بالتصورات القبلية أي بتأليف أولي لشروط العقل السابقة على التجربة ليصير بهذا العقل قائد الطبيعة، أمّا عند هوسرل فله صلة بما تقوم به الذاتية الترنسندنتالية من عمليات تسمح بالعودة إليها من خلال الرجوع إلى الوعي الخالص والارتداد عن العالم المادي المحسوس ومن هنا لا يتحدد الوعي كمجرد عنصر صوري وتبعا لهذا ينفي أي ارتباط للمعرفة بالخلق العقلي، وهكذا فإنّ هوسرل يسير في مسار لاكانطي (رافع محمد ،1991،ص ص 43،44) وبهذا يعمل هوسرل على تجاوز أسوار التحديد الكانطي للترنسندنتالي بالمعرفة إلى جعله شرطا للذاتية التي تمنح الوجود الترنسندنتالي بفضل ما يكفله منهج الرد الترنسندنتالي.

ويمكن أن نجد في فلسفة هيغل Heggel (1770، 1831)ما يتقاطع ويفترق مع المبتغى الهوسرلي الترنسندنتالي خاصة وأنّه يؤكد على مكانة الذات ودورها في النسق الفلسفي كما يبدو ذلك واضحا في كتاب فينومينولوجيا الروح حيث يقول " لقد عرضت في فينومينولوجيا الروح، الوعي على حركته الرابية من التقابل الأول الذي في الحال بينه وبين الموضوع حد العلم المطلق،

هذه الثنية تمر عبر أشكال علاقة الوعي بالموضوع وتنتهي إلى مفهوم العلم بماهو نتاجها " (هيغل، 2006، صفحة27)

ومن هنا تغدو العودة إلى الذات والموضوع أحد أهم المرتكزات التي يجب التعويل عليها في النسق الهيغلي والفينومينولوجيا الترنسندنتالية الهوسرلية غير أنّ المفترق في المسلكين يبدو واضحا في حقيقة ظهور الموضوع أمام الوعي. حيث أنّ هيغل يرى في تجربة الوعي تمييزا للمجال الذي يكون فيه الموضوع متميزا عن الذات وهوما يتعارض مع الوعي الترنسندنتالي الهوسرلي الذي يفضي ارتباط الوعي عنده بالقصدية إلى اعتبار توجهه إلى الموضوع تعبير عن ذات وموضوع أو ما يعرف بالمحايثة القصدية. وفي تحليل الماهية عند هيغل ديالكتيكيا يجعل لها مقولات منها الهوية أو الذاتية وتبعا لهذا يرفض التفرقة بين الماهوي وغير الماهوي كون غير الماهوي ماهوي فهما شيء واحد وبالتالي يفضي هذا الموقف إلى جعل علاقة الماهية بالظاهر هي نفسها علاقتها بذاتها، تلك هي هوية الماهية وذاتيتها (إمام عبد الفتاح إمام، 2007،صفحة192). وهو ما لا يتماشى مع الموقف الهوسرلي الذي يجعلها معطاة في الحدس أو الوعي الخالص كما هو والذي يكتمل إنجازه في الذاتية الترنسندنتالية.

هكذا يستحضر هوسرل تاريخ المسألة الترنسندنتالية ويبدو حواره مع الإرث الفلسفي الذي يشكل منطلقا مكنه من اكتشاف البعد الترنسندنتالي للفينومينولوجيا واكتمال تحقق الوعي الخالص في الذاتية الترنسندنتالية. في كشف عن تهافت مواقف فلسفية وحدودها وتناقضاتها قياسا مع مبتغاه الذي يطمح إلى تأسيس العلم الكلي والمعرفة المطلقة والفلسفة الأولى استناد إلى ذاتية ترنسندنتالية ، تلك هي بالضبط مهمة الفينومينولوجيا الوصول إلى الوعي الخالص إلى البنية الماهوية للذات الترنسندنتالية التي تحمل الصورة الكلية للعالم .

5- في معنى الذاتية الترنسندنتالية ومكانتها في فينومينولوجيا الماهية عند هوسرل :

بناء على ما سبق كشف الحوار الفينومينولوجي الترنسندنتالي الهوسرلي مع تاريخ المسألة المثالية والترنسندنتالية عن المعنى الذي أراده للذاتية الترنسندنتالية ومكانتها في فينومينولوجيا الماهية، فالبداية الأولى التي ارتسمت فيها معالم المعنى كانت مع "محاضرات فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن الداخلي" سنة 1905 بإطلاق مصطلح "الذاتية المطلقة " وكان المقصود من ذلك الوعي بالذات الذي يقترن بالأفعال المعرفية الواعية التي تكون في الزمن الداخلي " إنّ المعيش الذي يعطى الآن ويوجد في الزمن، لو كررنا عليه بالإشارة النظرية، فسيتبين أنّه إنّما هو أولا وحدة الوعي الباطني ، أو وحدة الوعي الزمني التي هي وعي إدراك حقيقي" (هوسرل، 2009، صفحة168). ومن هنا فإنّ هوسرل يصل إلى معنى هذه الذاتية من خلال تحليل الوعي الزمني.

بيد أنّ كتاب أفكار1913 الذي يطلق فيه تعبيرات عديدة عنها: كالوعي الخالص والوعي الفينومينولوجي والأنا الخالص تتوضح في صورة هذه الذاتية من خلال مفهوم الإيبوخية ورفض

الموقف الطبيعي وبالتالي تجاوز الوعي السيكولوجي إلى وعي خالص ومن ثم يصل إلى إبراز مكانة هذه الذاتية في الوصول للموضوعية والمعنى، أي أنّ ماهية العالم وطابعه القبلي الفينومينومينولوجي تنكشف بعد عملية التعليق المنصب على وقائعيته ومن هنا فإنّ المعطى الماهوي للعالم يستوجب في البداية التخلص من الرواسب التجريبية للوصول إلى إدراك ماهيته من خلال الوعي الخالص وبالتالي فإنّ إدراك العالم فينومينولوجيا يتحدد من خلال وعي الذات بذاتها . الوعي الترنسندنتالي الخالص . وتبعا لهذا فإنّ الوصول إلى إدراك العالم وماهيته يشترط هذه الإنّية (منصور، 2016، الصفحات 368، 369).

وهنا يطرح سؤال مهم: هل قصد هوسرل بهذا تأسيس عالم جديد؟ هل يختلف العالم الموضوعي في الموقفين الطبيعي والترنسندنتالي؟ إنّ الموقف الفينومينولوجي لم يقدم عالما آخر بل أسس معنى العالم لا غير وبالتالي فإنّ النظر إلى العالم موضوعيا واحد في الموقف الطبيعي قبل التعليق والموقف الفينومينولوجي بعده فهو متحدّد بذاتية، غير أنّ فعل التأسيس في الموقف الفينومينولوجي يتحدد بالذاتية الترنسندنتالية بوصفها وعيا بالذات ومؤسسة للعالم الموجود (بونفقة، 2011، الصفحات134، 135).

ومن ثمّة فإنّ فعل التأسيس هذا في الذات يتجاوز المعنى الذي تحمل فيه هذه الأخيرة العالم بصورته الوقائعية التجريبية السيكولوجية، وتبعا لهذا يكون للوجود الطبيعي السلطة الثانية. إنّ المفترق الفينومينولوجي والسيكولوجي يتجلّى في كون الذاتية السيكولوجية ذاتية تجريبية تختلف من شخص إلى آخر والذاتية الترنسندنتالية محايدة توصف بالبداهة وبالتالي فهي الأساس لكل معطى ماهوي كلي ثابت، ومن هنا فإنّ هوسرل لم يبق أسيرا للمعنى الذي تناوله في كتابي فلسفة الحساب(1891) والأبحاث المنطقية (1900) الذي ينظر إلى أفعال الوعي كأفعال سيكولوجية، بل بتجاوزه إلى اعتبارها ماهيات محايثة للذاتية الترنسندنتالية كما يتوضح ذلك في كتاب أفكار، وهنا نقحم في المفارقة التالية : إذا كان كل شيء لا يعطى إلّا بفعل التأسيس داخل الذاتية وباعتباره موضوعا كذلك فهل معنى ذلك أنّ هوسرل يجعل هذه الذاتية بوصفها معطى كموضوع كذلك ؟

إنّ هوسرل حينما يعتبر الذاتية مؤسسة لا يجعلها محوّلة إلى موضوع وذلك لأنّها حينما تعطى في كل موضوع تعطى بصفتها متقدمة عليه وبالتالي فإنّ العالم لا يكون موجودا إلاّ إذا ارتد إلى الوجود . المعطى الأصلي للذاتية . والذي لا يمكن أن يكون الموضوعية بل الذاتية (بونفقة، 2011، صفحة135). وبهذا فإنّ الذاتية الترنسندنتالية لم تعد مرتبطة بالتأسيس للمعنى . معنى الوجود. بل لموضوعيته كذلك.

وهكذا فإنّ الحديث عن الذاتية الترنسندنتالية والمعنى الذي يتجاوز الذاتية التجريبية مع جعل الوعي وعي بشيء ما وفقا لما تتيحه القصدية، يوجه البحث الفينومينولوجي صوب معرفة

ماهوية تتأسس على ذاتية خالصة ومعرفة تستند إلى وصف ما يتبدى للذهن من الموضوع ومع ذلك تبقى المعرفة في الأخير في عودة الذات إلى ذاتها وهكذا يتوضح البعد المثالي الترنسندنتالي للفينومينولوجيا كما يظهر ذلك في تعبير هوسرل عن هذا في التأملات " فالفصل بين الفينومينولوجيا و المثالية الترنسندنتالية تعبير عن إساءة فهم للمنهج القصدي أو معنى الرد الترنسندنتالي " (Husserl, 1996,p715). وبهذا تكون المهمة الملقاة على عاتق الفينومينولوجي دراسة أنماط الوعي في كليتها الماهوية.

وهو ما يحيلنا إلى مختلف المسائل المرتبطة بالذاتية الترنسندنتالية هذه الأخيرة لا يمكن أن تكون سوى العالم القائم أمامها وهذا الأخير ليس موجودا إلا في الوعي كموضوع مدرك أي أنّ الأنا الترنسندنتالي يحمل الصورة الماهوية القبلية الكلية اليقينية للعالم الخارجي وتبعا لهذا يمكن جعله أو اعتباره موناد يحوي كل الماهيات الممكن الحصول عليها من إنبثاقات الواقع، ولكن هنا يطرح سؤال مهم: هل يستبعد هوسرل من بنية الذاتية الترنسندنتالية تجربة الأنا الآخر؟ هل يمكن القول أنه سار في طريق مثالية الأنا وحدية؟ هل سقط في المعنى الذي يؤكد على أنّ الأنا الفردي هو الذي يمثل وحده كل الحقيقة التي يدركها بشعوره الداخلي ويكوّنها بخبرته الذاتية وبالتالي يكون الموجود الأوحد الأكبر لدى المعارف هو ذاته لا أكثر؟

تجنبا لما يمكن أن يطرح من مفارقات ومآزق الارتماء في مثالية الأنا وحدية يتجه هوسرل في التأملات تحديدا في التأمل الخامس المعنون . بتحديد المجال المتعالي كذاتية متصلة بين الوحدات الذاتية . إلى القول بأنّ فعل القصدية لا يلغي ظهور الأنا الآخر في الأنا الذاتي الخالص أي في الوعي الذاتي، ومن ثمّة فإنّ الآخر يكون موضوعا قصديا يد ركه الأنا الترنسندنتالي، هذا الإدراك يفضي إلى المعنى الذي يرتبط بهم كذوات لهم تجاربهم النفسية ويدركون العالم نفسه الذي يتم إدراكه من الأنا وبالتالي سيملك الأنا الذاتي تجربة عن العالم وعن الآخر بوصفها تجربة اتصال بين الذوات وتوجد عند كل أنا، وبهذا تنتهي قصدية الوعي إلى صلة بامتلاك تجربة عن العالم وعن الآخرين في إطار الحياة الخالصة المردودة على نحو ترنسندنتالي، هذه التجربة تتعدى الوصف الذي يجعلها نشاط تأليفي خاص بالذاتية الخالصة (الترنسندنتالية) إلى اعتبارها تجربة عن عالم غريب عنها ومتصل بين الذوات له وجود عند كل ذات وتكون الموضوعات متاحة لكل طرف (هوسرل، 1970، الصفحات 213، 214).

إنّ الآخرين بالنسبة لي وفقا للمنظور الهوسرلي لا يبقوا منعزلين عن أناي بحكم تقومهم في الدائرة التي يشتركون فيها ويشمل هذا الأنا كذلك وبالتالي يكون هناك اشتراك بين الوحدات الذاتية الذي يقوم عالما واحدا وفي هذا تلتقي جميع الذوات ويتم ذلك في الإدراك المدرك لها كموضوعات يقول هوسرل "إنّ الذاتية المتعالية المتصلة تملك بفضل هذا الوضع المشترك دائرة ذاتية متصلة للاختصاص حيث يتقوم فيها على نحو ذاتي متصل العالم الموضوعي وكذلك بصفتها

" النحن المتعالي " فإنّها ستكون بالنسبة إلى هذا العالم ذاتا وكذلك بالنسبة إلى عالم بني الإنسان، بوصفه الصورة التي تتحقق عليها الذات ذاتها كموضوع" (هوسرل، 1970،صفحة 234).

إنّ اعتبار التجربة حال من أحوال الوعي، حيث يعطى هذا الأخير في صورته الأصلية قد يفهم منه أنّ تجربة الإخر تعطى كذلك، بيد أنّ هوسرل لا يعتبره كذلك فهو لا يعطى في صورته الأصلية، ذلك أنّ وجوده الذاتي الخاص بجسمه ونفسه يظل له، كما يبقى لي وجودي الذاتي الخاص وبهذا يعطى الآخر في وعيي الخاص كحضور مناظر. ولذلك فإنّ إدراكي له يكون بالقصدية الوسيطية" تبدأ من الطبقة العميقة للعالم الأولي وتبقى دائما طبقة أساسية، وتمثل" المعية "أو "الوجود مع "، الذي لا يكون أبدا حاضرا بشخصه والأمر هنا خاص بنوع من الفعل به يحصل" الوجود مع " ونوع من إدراك النظير الذي سوف نشير إليه بكلمة حضور النظير" (هوسرل، 1970، الصفحات 236، 237).

إن حضور الأخر كنظيري وعيي يعتمد على قصدية الوعي كما يعتمد أيضا على المزاوجة، بوصفها عنصرا من عناصر التقوم، بالترابط في تجربة الآخر، وهذا يعني أنّ التشكيل الزوجي يتألف من مضمونين يعطيا لنا بالحدس المباشر في الوعي وفي تأليف انفعالي، إنّ كل موضوع يظهر في الوعي يستدعي مزاوجة بالتبادل وذلك عن طريق التزاوج القصدي كخاصية ذاتية فيه، وهذه العناصر التي يستدعي بعضها البعض بالتبادل إذ يكمل الواحد الآخر بتبادل عناصرها " وهذا التحصيل بين العناصر يمكن أن يكون كلي أوجزئي، ويستدعي نوعا من التدرج دائما، الذي ينتهي إلى حد المساواة بين المعطيين، وهذا يؤدي إلى نقل المعنى إلى داخل المجموع المزاوج، أي يؤدي إلى الإدراك العقلي لكل عضو من هذين العضوين طبقا لمعنى الآخر"(هوسرل، 1970،الصفحات 240، 241).

هكذا ينقلنا هوسرل من خلال تحليل بنية الذات الترنسندنتالية إلى تحديدها كمجال متصل بين الوحدات الذاتية بيد أنّ هذا التحديد الذي اعتقد أنّه يمكن أن يجنبه المفارقات والمآزق لم يكن ليمر دون أن يطاله النّقد الذي سيؤسس لحقبة ما بعد هوسرل وهذا ما سنحاول الوقوف عنده.

6-صعوبات ومآزق تأسيس المعطى في الذاتية الترنسندنتالية:

إنّ نقطة البدء الأولى الهوسرلية كان بضرورة التسليم بوجود العالم الخارجي في مقابل الذات، وذلك تجنبا لمأزق عدم جدوى الردود والقصدية لو جعل العالم الخارجي قائما في الذات منذ البداية، بيد أنّ الموقف الهوسرلي يبدأ في التحرر التدريجي من وقائعية العالم حينما يعلن أن هذا الأخير موجود في ذاتي ومن أجل أن يدرك في وعيي، ليتم استكمال هذا التحرر برده إلى الذات، من هنا نستطيع القول أنّ المعطى الموضوعي سيصبح ماهية عقلية في الذاتية الترنسندنتالية.

وهنا وصف الموقف الهوسرلي عند البعض بالإقحام في مأزق السير بهذا المعطى إلى العالم المثالي للذاتية الترنسندنتالية وتبعا لهذا لم يبق هوسرل وفيا لمنطلقاته التي لطالما رفضت الانحياز إلى الموقف المثالي في التأسيس، ويبدو بهذا في محاولة استكمال مشكل ترنسندنتالي طرحه كانط من قبل، سيما وأنّه جعل العالم يعتمد وجوديا على الأنا الترنسندنتالي ويترتب عن هذا أن صار العالم من غير دلالة الوعي غير ممكن وجوديا وذلك لأن الأنا الترنسندنتالية وحدها التي بإمكانها منح المعنى لموضوعات الوعي(مصطفى، 2007 ، الصفحات 202 ، 203).

إنّ المسحة المثالية تتجلى بوضوح في رد العالم إلى الذات التي تمنحه المعنى ولذلك فإنّ المسار الهوسرلي يبدو بهذا يعيد ترنسندنتالية كانط ويتماشى مع مثالية الكانطيين الجدد .صحيح أنّه نظر إليها نظرة نقدية ولكنها في النهاية ليست إقصائية، ويمكن اعتبارها استكمال للنظر في المشكل الترنسندنتالي مع اختلاف قد يبدو في عدم قبول هوسرل تحليل الموضوع إلى قوانين صورية، وعدم نفي وجود تعددية من الذوات كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ذلك أنّه يكشف عن تحديد الترنسندنتالي بالعالمي ويجعل من مهمة الفينومينولوجيا الترنسندنتالية كما يتبين ذلك في التأملات " بيان الأنا عن ذاته هو بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، الذي يبين لنا كيف يتقوم الأنا هو ذاته بماهيته الخاصة ، كموجود في ذاته ، وثانيا بيان الأنا عن ذاته بالمعنى الواسع للكلمة الذي يبين لنا كيف يتقوم الأنا في ذاته ، الآخرين ، والموضوعية ، وبعامة كل ماله قيمة وجودية بالنسبة لي أنا سواء في الأنا أو اللّأنا " (هوسرل، 1970،صفحة207).

هكذا يجعل هوسرل من الذات ذاتا للمعارف الممكنة وبالتالي صارت ماهية عقلية يعيش داخلها الأنا، هذا الموقف يصفه جان فال Jean Wahl بالموقف الانعزالي المتطرف ويرى أنّ الكوجيتوالهوسرلي لا يختلف عن كوجيتوديكارت، ولم يكن في مقدوره تجاوز حدود الفكر ذلك أنّه بد أ منه وانتهى فيه (Wahl, 1962, p p 09.20).

أمّا ميرلوبونتي Merleau Ponty (1908. 1961) فهو يرفض المنحى الهوسرلي في تجاوز وقائعية العالم، لذلك فهو يستبعد في موفقه أي فصل بين الماهيات والوقائع، ذلك أنّ الوعي لا وجود له منفصل عن الوجود الجسمي أي كوجيتو متجسد " فالعالم مصنوع من نسيج البدن في العين والروح " (Merleau Ponty ,1989,p13) .

إنّ الموقف الهوسرلي حينما يتحدث عن الذاتية الترنسندنتالية الخالصة يعتبرها مقدمة على كل ماهو عالمي والذي وجب أن يعلّق، غيرأ نه حينما يحدثنا عن فاعلية وتقوم وإنجازية هذه الذات يقحمنا بذلك في إحراج عدم إمكانية اعتبار هذه الذاتية ذاتية خالصة، مادامت القوى التي انضافت إليها قوى لها صلة بالعالمي والواقعي، من هنا يمكن القول أن هذه الذاتية الترنسندنتالية وإن كشف عنها التعليق ستظل عاجزة عن الفعل رغم أنّها تحمل معناه (خوري، 1983، صفحة215) . أي أنّ رواسب الموقف الطبيعي لا زال لها حضور.

وإذا كان الولوج إلى منطقة الوعي الخالص ومواجهة الأنا يستوجب وضع ما هو عالمي وواقعي بين قوسين، فإنّ اللغة بوصفها مادية تكتب وتنطق لا يجب أن تستثنى من عملية التقويس والتعليق والفحص الماهوي إلّا أنّ هوسرل سيقحم في مأزق آخر عندما يسلّم بها كوسيلة أو طريقة تمكّن من العبور إلى منطقة الوعي الخالص والذاتية الترنسندنتالية، وذلك بحكم أنّ كل ما هو عالمي بما فيه اللغة يجب أن تعلق ، وبهذا يبدو العجز الهوسرلي في إيجاد طريق مقنع في تجاوز هذه المفارقة المنطقية ، بل إنّ الموقف الهوسرلي الذي يجعل العالمي معلقا ويترك الذات الترنسندنتالية في عالمها الماهوي الترنسندنتالي سيفتح الطريق على مصرعيه لصعوبات جمّة تبدو فيها حقيقة عدم الوفاء للمنطلقات، فلطالما أبدى هوسرل رفضه لثنائية الفكر والواقع، وما يترتب عنها من امتدادات طغت على الفلسفة النسقية التقليدية غير أنّنا هنا سنكون أمام مآل حتمي هوسرلي يعبّر عن نوع من ثنائية الماهية والوجود بفعل التمييز بين الذات الترنسندنتالية وعالمها الماهوي و الذات السيكولوجية بوصفها ذات تجريبية ومن ثم يتوضح مدى تغييب الوحدة بين الفكر والواقع (رافع محمد، 1991، الصفحات 239،241).

وهكذا نستطيع القول أنّ هوسرل لم يتمكن من إنهاء الجدل القائم حولها عندما اعتقد أنّه تجاوز ثنائية الذات والموضوع في بنائه القصدي سيما وأنّه انحاز إلى البحث عن الحقيقة في عالم الذاتية الترنسندنتالية.

إنّ ما يقدّمه هوسرل من مبررات مختلفة تجاوزا لإحراج الوقوع في المثالية. من خلال التأكيد على أن القصدية لا تمنع ظهور ذات الآخر في ذاتي الخالصة كما يكشف عن ذلك في التأملات . لا يستطيع أن ينفي انغلاق الذات بوصفها الحقيقة الواحدة المطلقة والكلية وباعتبارها أساسا لكل يقين تمنحه هذه الذات على الموجودات، وهذا ما يكشفه جان بول سارتر في كتاب الوجود والعدم حيث وجد في تفسيرات هوسرل عاجزة عن تجاوز مأزق الأنا وحدية " وهوسرل يجيب على الهو وحدي بأنّ وجود الغير مؤكد بنفس درجة توكيد العالم ، مع إدراج وجودي النفسي الفزيائي في العالم ، لكن الهو وحدي لا يقول شيئا آخر إنّ وجوده مؤكد بنفس الدرجة ، لكن لا أكثر ، ووجود العالم يقاس بالمعرفة التي لدي عنه، ولا يمكن أن يكون الأمر بخلاف هذا فيما يتعلق بوجود الغير " (سارتر ، 1966، صفحة 400).

هنا ينقلنا سارتر إلى الطريق المفضي لتجاوز مأزق الهو وحدية والذي يكون في" إثبات الشعور المتعالي في وجوده نفسه يتأثر بالوجود خارج العالم لشعورات من نفس النمط. وهكذا فإنّ هوسرل بردّه الوجود إلى سلسلة من المعاني، قد جعل الرابطة الوحيدة بين وجودي ووجود الغير هي رابطة المعرفة ولهذا لا يمكنه شأنه شأن كانط الإفلات من الهو وحدية " (سارتر، 1966، صفحة 400).

بناء على هذا يبدو أنّ الجهود الهوسرلية في محاولة نفي مثالية الأنا وحدية لم تسلم من النقد حينما اعتبرت دعوة صريحة في الكثير من المرات للعودة إلى الذات الفردية لإدراك حقيقة

العالم فالعالم الخارجي والأخرين يكتسبون المعنى من الأنا وفي إطار الوعي المتعالي ولذلك وصف موقفه بالتطرف في الأنا وحدية ، هذا الأخير فتح المجال لانتقادات أخرى من قبل الماركسيين الذين أسسوا مواقفهم على رفض كل فلسفة لا تعطي عناية لواقع الإنسان المادي ومن ثم فهم يرفضون كل علو يحمل في طياته مثالية أو غيبية أو بورجوازية خفية وتجسد منطق الهيمنة والسيطرة على الآخر.

تأسيسا على هذا يضع الماركسيون الجهود الهوسرلية في محاولة التوجه نحو الوعي الخالص ورفض مختلف النزعات السيكولوجية على محك النقد سيما وأنّهم يعتبرونها تعبير عن أوهام تسعى جاهدة لمحاولة صبغ مقولات المثالية الذاتية بصبغة زائفة، إنّ هوسرل حينما يسير في هذا المنحى. طريق الوعي الخالص. يكون قد جسّد أزمة الفكر الأوربي في القرن العشرين وهي أزمة ترتبت عن الأزمة الأولى، أزمة تعكس البرجوازية الأوربية، بوصفها الملاذ الآمن للطبقة المثقفة، وانسياق نحو الالتباس والمثالية الذاتية. إنّ الارتداد إلى الوعي الذاتي عند هوسرل وفق منظور الماركسيين فيه تجاهل للعمل الجماعي ودوره المنوط به وقيمته في الموضوعات وهو الذي يكون عالم التاريخ (ابراهيم، الصفحات 349، 350، 351).

وبهذا فإن الموقف الهوسرلي لا يتماشى مع التصور الماركسي الذي يرفض أن يتوقف معنى العالم على الأنا النظري من خلال التأكيد على مكانة التاريخ والتكوين الجماعي، وتأسيسا على هذا فهو يرى في فينومينولوجيا هوسرل عموما عدم الخروج عن التراث الفلسفي الغربي الموروث منذ العصر اليوناني القديم والذي لم يستطع تجنب الطابع الغيبي والمثالي والمجرد وما يتصف به من تهويم خيالي واستغلال وبرجوازية وحياد بالعلم عن واقعه الموضوعي أو أي مساهمة في النهوض والارتقاء بالمجتمع.

بناء على ما سبق نصل إلى القول: أنّ السعي الهوسرلي في تحويل مصدر اليقين من العالم الخارجي إلى العالم المثالي للذاتية الترنسندنتالية اعتبر في تعارض مع منطلقاته وأهدافه، ولهذا السبب عدّت فلسفته إعادة للمثالية الكانطية الترنسندنتالية في ثوب جديد. وعندما ينقلنا الموقف الهوسرلي إلى المسائل التكوينية المرتبطة بالذات الترنسندنتالية يتبين لنا مدى الصعوبات التي يمكن أن نقحم فيها والتي ترتبط خصوصا بمأزق تجاوز حدود الفكر عندما تمّ تجاهل وقائعية العالم، ومن ثمّة يعبّر النقد الذي طاله عن عدم استطاعة لتجاوز كوجيتو ديكارت، ولا ثنائية الفكر والواقع كموروث تقليدي فلسفي لينتهي الطريق الهوسرلي وفق هذا المنظور في مثالية الأنا وحدية ، هذا ما فتح المجال لنقد فلسفي معاصر يسعى لتفلسف يتجاوز كل مثالية متطرفة، وهو ما تكشفه مختلف التوجهات الفينومينولوجية بعده التي قد تبدو في محاولة استكمال الفراغات والثغرات أو غيرها من التوجهات اللاّفينومينولوجية.

لقد أبان مارتن هيدغرM- Heidegger (1889.1976) على سبيل المثال عن رفضه للموقف الهوسرلي الساعي للقبض على الماهية المتحجبة وراء الوعي بعد التخلص من رواسب الذات السيكولوجية تمهيدا لاكتشاف البعد الترنسندنتالي من حاكمية الذات المتعالية الذي يفضي إلى تجاوز وقائعية العالم كما هو معطى، حيث تصير الذاتية الترنسندنتالية مؤسسة لمعنى الوجود ولموضوعيته كذلك فيكون لهذه الأخيرة أسبقية عن وجود العالم ومن ثم لا وجود لعالم خارج الذات.

عند هذه النقطة بالذات يتدخل هيدغر لرفض التأسيس الهوسرلي للعالم عبر المعنى من خلال التأكيد على الوحدة الأنطولوجية التي لا تنفصل بين العالم ومن ثم رفض اعتبار الوجود في العالم قصدا متبادلا وإنّما علاقة أنطولوجية سابقة على كل تحديد وتأسيس معرفي، إنّ هيدغر يجد في طرح الأنا الترنسندنتالية لمنح المعنى تعبير عن عجز هوسرلي في اختزال الظاهرة . ظاهرة المعنى . فكان التوجه إلى استملاك هذه الذاتية التي ماهي إلّا ذات ديكارتية أو عودة لديكارت بطريقة لا ديكارتية، إنّ الدازين Dasien ليس امتزاج مع هذه الذات، وهكذا بقي هوسرل أسيرا لمتافزيقا التمثل دون تجاوز الكوجيتو الديكارتي بالانتهاء إلى تعالي الذات، أمّا عن علاقة الدازين بالموجود فهي بسيطة تتحدد منذ البداية (لكحل،2011، الصفحات 89، 90، 91).

يبقى أن نقول: إنّ هذه الانتقادات التي وصفت عند البعض بمآزق الذاتية الترنسندنتالية عند هوسرل بقدر ما كشفت عن ثغرات واعتراضات فتحت أفقا جديدا لاتجاهات مختلفة مهما حاولت التملص من قبضة ما كان يبدو غير مقبول من هوسرل إلّا أنّها لا يمكن أن توصف سوى باتجاهات فينومينولوجية أفادت من هوسرل ونقدها له.

7- خاتمة:

ننتهي في ختام هذا المقال إلى القول:

1. إنّ هوسرل يستخلص معنى الذاتية الترنسندنتالية بطريق الفينومينولوجيا ومنهج الإيبوخية (تعليق الحكم) الذي يردّ فيه الأنا الطبيعي السيكولوجي إلى أنا ترنسندنتالي، فيحال العالم الموضوعي إلى هذه الذاتية التي تؤسس للمعنى ، ومن ثمّة فإنّ ماهية هذا العالم تنكشف بعد التعليق الذي ينصب على وقائعيته، علما أنّ هذه الذاتية وبنيتها تتحدد كذلك كمجال متصل من الوحدات الذاتية كما يوضح ذلك هوسرل في التأملات.

2. يمكن استخلاص معنى هذه الذاتية كذلك من الحوار الذي يجريه مع تاريخ المسألة المثالية الترنسندنتالية والإرث الفلسفي الذي مكّنه من اكتشاف البعد الترنسندنتالي للفينومينولوجيا الذي يكتمل فية تحقق الوعي الترنسندنتالي بهذه الذاتية.

3. إنّ هوسرل بهذا يقدم معنى جديد لها يعبّر عن نظرة يكون منطلقها من الفينومينولوجيا ذاتها واستعادة لإرث فلسفي بنظرة لا تطابقية بل لاكتشاف أبعاد وحوافز فينومينولوجية ،

4. رغم ما يبدو من نقد موجه لتأسيس المعطى الموضوعي والماهية في هذه الذاتية واعتبارها انحراف نحو سياق مأزقي يتعارض مع المنطلقات التي لطالما رفضت السقوط في أسر المثالية وتطرفها، ورغم وصف بعض التوجهات لها بمجرد استكمال لمسار ترنسندنتالي لا يخرج في حقيقته عن سابقيه، وعدم القدرة على تجاوز الكوجيتو الديكارتي، أو القول بأنّها تقحمنا في صعوبات لا مخرج لها إلّا أنّ ذلك لا ينفي التجديد الهوسرلي في معنى هذه الذاتية سيما وأنّ ما فتح من آفاق للبحث يدين في ذلك لما توصل إليه هوسرل كما يبدو واضحا في مختلف التوجهات الفينومينولوجية أو اللافينومينولوجية المعاصرة .

قائمة المراجع:

أولا باللغة العربية

1.إبراهيم زكريا(دس). دراسات في الفلسفة المعاصرة. دط. القاهرة: دار مصر للطباعة.

إمام ، عبد الفتاح إمام.(2007).المنهج الجدلي عند هيغل، دراسة لمنطق هيغل.ط3. بيروت: دارالتنوير.

2.بونفقة ، نادية.(2012). فلسفة إدموند هوسرل ، نظرية عالم الحياة .ط2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .

3.بونفقة، نادية.(2011).فلسفة إدموند هوسرل. نظرية الرد الفينومينولوجي. ط2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

4.جوليفيه ،ريجيس.(1988).المذاهب الوجودية من كيركجور إلى سارتر. ترجمة: فؤاد كامل. ط 1. بيروت: دار الآداب.

5.خوري، أنطوان.(1983). مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية .ط1. بيروت: دار التنوير.

6.رافع محمد،سماح.(1991).الفينومينولوجيا عند هوسرل، دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر.ط1.بغداد:دار الشؤون الثقافية العامة.

7.الزارعي ، محمد محسن.(2002). الفينومينولوجي والترنسندنتالي والإنساني في فكر هوسرل. مجلة أوراق فلسفية. العدد السابع.

8.الزارعي، محمد محسن.(2010). إدموند هوسرل، الفينومينولوجيا والمسألة المثالية. ط1. بيروت: دار التنوير.

9.سارتر، جان بول.(1966).الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، ترجمة :عبد الرحمن بدوي. ط1. بيروت: دار الآداب.

11.سارتر، جان بول.(دس).نظرية الإنفعال. ترجمة:هاشم الحسيني .دط. بيروت : منشورات مكتبة الحياة.

12.كانط، إيمانويل. (2013). نقد العقل المحض. ترجمة: غانم هنا. ط1. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

13.لكحل، فيصل.(2011). إشكالية تأسيس الدازين في أنطولوجيا مارتن هيدغر.ط1. الجزائر: كنوز الحكمة.

14.مصطفى، عادل. (2007). فهم الفهم . مدخل إلى الهيرمينيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادمير. ط1. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

15.منصور، أشرف (2016). نظرية المعرفة بين كانط وهوسرل، دراسة في الأصول الكانطية للفينومينولوجيا. ط1. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

16.هوسرل، إدموند.(2002). الفلسفة علما دقيقا. ترجمة: محمود رجب. ط1. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة.

17.هوسرل، إدموند.(2009). دروس في فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن. ترجمة: لطفي خير الله. ط1. لبنان: منشورات الجمل.

18.هوسرل، إدموند.(1970). تأملات ديكارتية.، المدخل إلى الظاهريات: ترجمة نازلي إسماعيل حسين. دط . مصر: دار المعارف.

19.هوسرل، إدموند.(2007). فكرة الفينومينولوجيا. ترجمة: فتحي أنقزو. ط1. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

20.هيغل، فريديريك.(2006). فينومينولوجيا الروح. ترجمة: ناجلي العونلي. ط1. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

ثانيا: باللغة الاجنبية

21.Husserl, Edmund.(1990).Philosophie premier1er partier,histoircritique des ideé.tr : Arion,L ,Kelkel.Paris.PUF.

22.Husserl, Edmund.(1990).Philosophie premier2. Tr :Arion,L ,Kelkel .Paris. PUF.

23.Husserl,Edmund.(1950). Ideé directrice pour unephénoménologie. Tr : P, Ricoeur. Paris. Gallimard.

24.MerleauPonty,Mourice.(1989).Phénoménologie de la perception.Paris. Gallimard.

25.Wal,Jean.(1962).Tableau de laphilosophiefrançaise.Paris.Gallimard.